الفصل الثاني

خصائص
البديل الحضاري

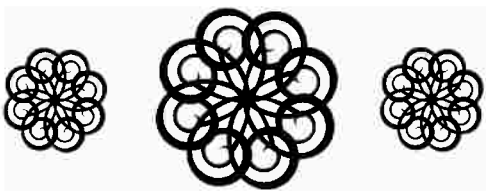

بعد أن استعرضت فى الفصل الأول وضع الحضارة الغربية ، والحال الذى صارت إليه ، ومدى جنايتها على الإنسان والحياة الإنسانية ، أصبح فى حكم المؤكد أن يقفز إلى الذهن هذا التساؤل: وهل من بديل ؟

وإذا كان هذا البديل موجوداً فما مواصفاته؟

وما خصائصه التى تؤهله لرفع اللواء ، وحمل الراية ، وتحمل المسئولية ؟

وهو تساؤل يأتى فى موضعه تمامًا ، إذا لابد من بديل ؛ لأن الوضيعة القائمة أصبحت تضغط- وبشدة- على وجدان الإنسان، وتدوس قيمه، وتنهش ثوابته ومسلماته،وتحبس فطرته النقية وراء قضبان حديدية ، فلا يعرف للحرية معنى ، ولا يكاد يذوق للسلامة والأمن طعمًا . واستمرار هذه الوضعية الشاذة ، يسوق الإنسانية بخطى ثابتة نحو الهاوية التى تفغر فاها ، فى انتظار فريسة شهية يزيد تعدادها على ستة مليارات من البشر ، هم ضحايا تلك الحضارة الموبوءة ، فلا بد إذن من بديل يتمتع بصفات أخرى ، ويتميز بسمات عليا يتقدم ؛ ليحمل الراية ، ويرفع اللواء ، ويقود ركب البشرية بخطى واثقة ؛ بيدين : إحداهما ترفع الراية ، والأخرى تحمل منهجًا ، وبقدمين : إحداهما تخطُّ على الأرض والأخرى تطأ السماء ، ومع كل ذلك قلب يحلِّق فى آفاق عليا لا يطار لها على جناح ولا يسعى إليها على قدم .

إن البشرية اليوم تعيش فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه وهى فى حاجة إلى سفينة للنجاة ؛لتقوم بأكبر عملية إنقاذ عرفتها البشرية فى حياتها ، والصفحات القادمة تبرز خصائص هذا البديل ، لتقبل البشرية عليه بنفس راضية وقلب مطمئن .

الخصيصة الأولى بديل ربانى المصدر

هذه هى أول خصائص البديل المطلوب ، وليس هى أول خصائص فقط ، بل هى أعظمها كذلك ؛ إذ لابد أن يكون البديل من مصدر آخر غير تلك المصادر التى تستقى منها النظم والتصورات القائمة ، ومعنى ربانية المصدر : أنه نزل من السماء ولم ينبت من الأرض ، وأنه من عند رب الناس لا من عند الناس جاء ، وأنه - كذلك - لم يأت نتيجة لإرادة فرد ما أو أسرة ما أو مجتمع ما ، ولكنه جاء فقط ، نتيجة لإرادة ملك الناس الذى يريد لهم الخير ، ويطلب لهم الرشد ، ويرجو لهم الهدى والرحمة والسداد والرشاد ، لا فى الدنيا فقط ، بل فى الدنيا والآخرة ، إن هذه الخصيصة عندما تتحقق فى البديل ،فإن لها فى حياة الناس ثماراً لا تدانى ، وقطوفًا متنوعة ، تميز هذا البديل عن غيره من التصورات والأوضاع القائمة ، وأبرز هذه الثمرات مايلى :

1 - **التمام والكمال :**

عندما يكون البديل ربانياً فى مصدره ، فإن ذلك سيحقق له صفة لا تتوافر فى غيره وهى التمام والكمال ، فكل نظام أو وضع لا يتمتع بهذين الوصفين ، فهو ناقص ، وسيعود نقصه على البشرية بضرر ماحق ، وخطر مؤكد ، ولذا نلاحظ أن الله سبحانه عندما أراد أن يمتن على المؤمنين - وله الفضل سبحانه والمنة - قال مذكرًا لهم بنعمة تمام الدين وكمال المنهج : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[1] . والشئ الكامل هو الذى لا يقبل الزيادة ، والتام هو الذى لا يدخله نقص ، وكلا الوصفين لا وجود له فى مناهج الأرض ، وأوضاع البشر ، فهى لا تخلو أبداً من حاجة إلى زيادة عليها أو نقص منها ، فكل (**ما يصنعه البشر ويشرعونه ، فإنه لا ينفك من معانى النقص والهوى والجهل والجور ؛ لأن هذه المعانى لا صقة بالبشر ، ويستحيل تجردهم عنها كل التجرد ، وبالتالى تظهر هذه النقائص فى القوانين والشرائع التى يصنعونها**)[2] .

---

(1) المائدة : 3

(2) أصول الدعوة ، صـ47 ،د ./ عبد الكريم زيدان ،ط3 ، سنة 1987 ،مؤسسة الرسالة .

أما ما كان من عند الله ، فهو كامل يستمد كماله من كمال الله سبحانه ،لأن صفات الصانع ،تظهر حتماً آثارها فى صنعته ، فإذا أنزل الله سبحانه لعباده دينًا ، ورضى لهم شرعًا ، فهو لا شك أثر من آثار كماله سبحانه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وصدق الله سبحانه إذ يقول : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (1).

2- **عدم التناقض :**

وهذه ثمرة أخرى للبديل الحضارى عندما يكون ربانيًا ، وهو مع هذه الثمرة سيكون خاليًا من كل تناقض ، سليمًا من كل تعارض ، بريئًا من كل تضارب ، والله سبحانه يؤكد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (2) . فهذه الصفة وحدها –وهى ربانية المصدر – هى التى تضمن خلو البديل من التعارض ، وبراءته من التناقض ،أما ما كان من صنع البشر ، ومن وضع البشر ،فإنه لا يسلم من نقص البشر ، ولا ينفك أبدًا عن صفات البشر ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمة لله : **(فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشرى ، إلا وهو يحمل الطابع البشرى ؛ جزئية النظر والرؤية ، والتأثر الوقتى بالمشكلات الوقتية ، وعدم رؤية المتناقضات فى النظرية أو المذهب أو الخطة التى تؤدى إلى الاصطدام بين مكوناتها – إن عاجلاً أو آجلاً – كما تؤدى إلى إيذاء بعض الخصائص فى الشخصية البشرية الواحدة ، التى لم يحسب حساب بعضها ، أو فى مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحد منها إلى عشرات ومئات من النقائص والاختلافات الناشئةمن طبيعة الإدارك البشرى المحدود ، ومن الجهل البشرى بما وراء اللحظة الحاضرة ، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة – فى أى لحظة حاضرة –)** (3)

أما منهج الله وحده ، فهو شئ غير ذلك وفوق كل ذلك ؛ لأنه أولاً وآخراً : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (4) .

---

(1) البقرة : 138.

(2) النساء :82.

(3) فى ظلال القرآن ،جـ2 ،صـ722 ، سيد قطب ، مصدر سابق .

(4) فصلت :42.

3- **البراءة من التحيز:**

وكذلك يتميز البديل الحضارى – عندما يكون ربانيًا – بخلوه من كل أشكال الهوى، وسلامته من كل أنواع الميل والتحيز ، وهذا بالقطع لا يتحقق إلا إذا كان البديل من عند الله سبحانه ، أما إذا كان من عند بشر ، فإن البشر لا يخلو – إلا إذا كان بشراً رسولاً – من التأثر بالهوى ، والميل وراء المصالح الشخصية ، والنزاعات الأسرية والعرقية ، وكل واضع نظام يحرص – لاشك- فيه على مصلحته أو مصلحة أسرته، أو مصلحة مجتمعه أو مصلحة جنسه ، إلى آخر تلك الروابط التى تشد الإنسان إلى غيره ، أما منهج الله سبحانه فهو شئ آخر، فقد(**وضعه رب الناس للناس،وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان؛ لأنه خالق الزمان والمكان، ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات؛ لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات، ومن لا يتحيز لجنس ولا لون ولا فريق؛ لأنه رب الجميع، وكلهم عباده، فلا يتصور تحيزه لفئة دون فئة، ولا لجيل دون جيل، ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب**) [1] .

هذا هو البديل الحضاري، وتلك سمته عندما يكون ربانياً، وصدق الله العظيم: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

4- **سهولة الانقياد له:**

وعندما يكون البديل ربانيًا فإنه لا شك سيلقى من الاحترام ، وسهولة الانقياد ما لايلقاه غيره ، وهذا ما يلاحظ فى كل القوانين والمبادئ والنظم التى يضعها البشر ، فهى لاتحظى إلا بالقليل من الاحترام – إن كان لها فى الأصل احترام – لأنها تفتقد إلى حارس يحرسها داخل النفس ، حيث لاسلطان هناك إلا سلطان العقيدة وعسكر الإيمان ، وهذا ماتوفره الربانية للبديل الحضارى ، حيث إنه من عند الله سبحانه ، ومن هنا يحترمه الناس إيمانًا ، ويلتزمونه تعبداً ويقومون على حراسته فى النفس والمجتمع احتسابًا لله عز وجل ، وحسبنا هنا أن نذكر مثالًا واحداً على مدى مايتمتع به التشريع

(1) الخصائص العامة للإسلام ،صـ51 ،د/ يوسف القرضاوى ،ط2، سنة 1983م ، مؤسسة الرسالة .
(2) الجاثية : 18 .

من احترام وتعظيم عندما يكون ربانياً ، حيث حرم الإسلام الخمر واقتلع جذورها بآية واحدة وهى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1] .فى حين عجزت فى الحاضر أمريكا ، بكل ماتملك من جنود وأساطيل،وأجهزة ووسائل،وبكل ماأنفقت من مال وجهد ووقت[2] ، عن أن تفطم شعبها عن تلك الموبقة ، ورضخت فى النهاية لأهواء الناس ، فأجرت لهم الخمر يعبُّون منها إذا أرادوا فى أى وقت شاءوا ، لتبقى كلمة الله هى الأقوم قيلاً ، والأهدى سبيلاً ، والأبقى أثراً ، والأعمق تأثيراً .

5 - **تحرير الإنسان من العبودية :**

وعندما يكون البديل – كذلك- فإن أعظم ثمرة تنتج عنه وقتها،هى تحرير الإنسان من أسر العبودية ، وإطلاق روحه وبدنه من سجن الرق ، وذل الاستعباد ، فالعبودية أشكال متعددة ، وألوان متنوعة ،وأشد أنواعها خطراً على وجدان الإنسان، واستهانة بعقله هو أن يخضع لغيره من الناس يحل له ويحرم عليه ،إذا أمره يأتمر ، وإذا نهاه ينتهى ، وهذا لون من ألوان العبودية لا يجوز إلا لله سبحانه ، فهو وحده الذى يملك حق التشريع تحليلاً وتحريمًا ، أمراً ونهيًا ، إباحة ومنعاً ، وهو وحده (**الذى يحق له أن يسن التشريعات والقوانين التى يخضع الناس لها فى حياتهم الخاصة والعامة والتى تحكم المجتمع الإنسانى ،وهذا الحق أمر بدهى فى حس المسلم وتصوره،ذلك أن هذه الأرض التى يعيش عليها جزء من مملكة الله فى كونه الواسع ، والعباد الذين يدبون عليها هم من صنعه وتكوينه وخلقه ، فهو ربهم وإلههم وسيدهم ، ومن حقه أن يشرع لهم ، فما هم إلا عبيده ومماليكه ، ومن ناحية أخرى فإن تشريعه لعباده هو التشريع الذى يصلح عباده ؛ لأنه محكم كامل**)[3].

---

(1) المائدة :90.

(2) انظر تفصيل ذلك فى : الإيمان والحياة ،صـ204 ،د/ يوسف القرضاوى ،ط8،سنة 1987م . مكتبة وهبة .

(3) الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية،صـ165 ،عمر سليمان الأشقر ،دار الفرقان ،بدون.

فالتشريع إذن حق لله سبحانه وحده ، ومن اتبع مشرعاً غير الله ، فقد عبده من دون الله ، وهذا المعنى وارد وواضح فى ذم الله تعالى لأهل الكتاب عندما قال سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[1] .

ومن هنا عندما يكون البديل ربانيًا فهو يضمن للإنسان عدم الخضوع إلا لله سبحانه ، وتلك هى الحرية فى أسمى معانيها ، وأكمل صورها.هذه هى الثمرات التى تتحقق عندما يكون البديل ربانى المصدر ، وهو الأمر الذى لا يتوفر اليوم لمنهج غير الإسلام ، فكل مناهج البشر اليوم لاتخرج عن كونها إما وحياً محرفاً ، أو ضعاً بشريًا ناقصًا وقاصرًا ،أما الإسلام وحده فهو منهج الله سبحانه الذى تعهد بحفظه كاملاً ، لا يقبل الزيادة ،وتاماً لا نقص فيه ، وصدق الله سبحانه إذا يقول : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].

(1) التوبة :31 .

(2) الحجر :9 .

الخصيصة الثانية بديل ربانى الوجهة

أما الخصيصة الثانية التى ينبغى أن يتمتع بها البديل الحضارى ، فهى أن يكون ربانى الوجه بعد كونه ربانى المصدر ، وربانية الوجهة تعنى أن يكون البديل دافعًا للإنسان نحو هدف واضح ، وموجهاً له نحو غاية محددة ، ذلك الهدف هو حسن الصلة بالله تعالى ، وتلك الغاية هى الوصول إلى رضوانه ، هذا هو الهدف الأسمى ، والغاية الأعلى للبديل الحضارى ، أن يأخذ بيد الإنسان إلى خالقه ، ويقوده بتؤدة ورفق نحو بارئه ، فيحقق بذلك الغاية من وجوده ويفقه سر هذا الوجود ،إن الإنسان لم يخلق للطعام والشراب ، ولم يخرج للهو والعبث ، وإلا لا ستوى فى ذلك مع مخلوقات أقل منه شأنًا ،وأحط منه منزلة ،وإنما خلق لغاية أسمى وأعلى ، هذه الغاية لا يوضحها للإنسان سوى بديل حضارى ، يحدد الوجهة الصواب ويتخير الغاية المناسبة ، ويجملها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] .

- وكون البديل المطلوب ربانى الوجهة يحقق للإنسان وللإنسانية -كذلك- عدة ثمرات وهذه إشارة إلى أهمها:

1 - **إدراك سر الوجود** :

وهذه ثمرة لا تقدر بمال ، ولا تقاس بها أموال الأرض ، وكيف لا وكثير من الناس لا يدرك لوجوده حقيقة ، ولا يعرف لحياته معنى ؟

يحيا ويموت وهو يتساءل : من أين جئت ؟ ولماذا ؟ وإلى أين المصير ؟

وهذا الصنف من الناس لا شك يعيش فى عماية ، ويموت فى ضلالة ، ويبعث يوم القيامة حيران القلب كما كان في الدنيا إذ يقول : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

---

(1) الذاريات: 56.

(2) الإسراء :72 .

إن أعظم أسباب الضلال وفقدان الرشد فى فترات مختلفة وطويلة فى حياة البشر ، هو بعدهم عن المنهج الربانى الذى يجيب لهم عن تلك الأسئلة الأبدية حتى قال قائلهم شكًا وارتياباً وضلالاً :

لبست ثوب العيش لم استشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت؟أين المفر[1]

إنه العمى والحيرة والضلال والتخبط ، والبديل الربانى وحده هو الذى يملك الجواب الواضح لكل تلك التساؤلات الحائرة حيث يقرر..ويكرر.. دائما أن الله وحده هو الذى خلق ، فمنه كانت البداية ، وخلق لغاية واضحة حددها بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] .

ثم يكون المصير إليه في نهاية المطاف يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[3] فإذا أدرك الإنسان ذلك فقد أدرك سر وجوده، وغاية خلقه، وعندها يعيش في نور من ربه، وهداية من أمره، وإدراك لمصيره.

2 – **الانسجام مع الفطرة** :

وحين يكون البديل الحضارى ربانى الوجهة فإنه – كذلك – يهدى الإنسان إلى فطرته ، ويرده إلى طبيعته وجبلته ، وهذا كسب لا شك لا يستهان به؛ لأنه يحقق للإنسان ثمرات يانعة ،حيث التوافق مع النفس،والانسجام مع الفطرة،ولا يدرك النعمة فى ذلك إلا من فقد أمن النفس وسلام الضمير .

إن الاهتداء إلى الفطرة هو الذى يحقق هذا السلام داخل النفس ،وهو الذى ينبت معانى الأمن والاستقرار فى أعماق القلب ،يقول سبحانه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4] .

---

(1) انظر: الخصائص العامة للإسلام ،صـ12،د/ يوسف القرضاوى ، مصدر سابق ، بتصرف.
(2) الذاريات: 56.
(3) النجم: 42.
(4) الروم: 30.

وهذه الفطرة فيها فراغ لا يملؤه علم ولا ثقافةولافلسفة ولا طعام ولا شراب ، وإنما يملؤه فقط توجه الإنسان إلى ربه إيماناً به ، وتسليمًا لأمره ،والتزامًا بشرعه،يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (**فالقلب لايصلح ولايفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولايطمئن إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإيمانه بالله، فإنه لا يقدر له على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله**)[1].

إن الإهتداء للفطرة إذن معناه أن يجد الإنسان نفسه، فيجد معها الأمن والاستقرارفإذا لم يعرف إلى نفسه طريقًا، ولم يهتد إلى فطرته سبيلاً فهو إذن الشقاء والألم، والحسرة والعذاب.

3 – **السلامة من التمزق:**

إن الإنسان إذا عرف غايته واهتدى إلى فطرته،فإنه بذلك يضع يده على مفتاح السعادة، ويمسك بأسباب الأمن والراحة والسلامة؛ذلك لأن الإنسان تتوزعه اهتمامات شتى، وتتنازعه غايات متعددة، وهو في محاولاته الدائمة للتوفيق بين غاياته واهتماماته لا يجني سوى التمزق والتشتت،كمن يعبد آلهة متعددة ، فهو يشقى في محاولاته إرضاء كل إله على حدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[2] هذا المثال المر يصور شقاء الإنسان عندما تتعدد غايته، وتتنوع اهتماماته، ويتخذ لنفسه أرباباً عدة، وهو بالضبط ما يحدث للإنسان في ظل هذه الحضارة المعاصرة، فلم يجن من ورائه سوى الشقاء والألم والقلق والحيرة؛ لأنه ضل الطريق وفقد الغاية، أما البديل الرباني فإنه وحده هو الذي يمنح البشرية هداها (**والمؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر**

(1) العبودية،ص54، المكتبة القيمة ، بدون.
(2) الزمر:29.

من أقدار الله، المؤمن هو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر ولا ساخط على نفسه وعلى الكون وعلى الحياة، ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله ،ومنشأ ذلك رضاه عن مصدر الوجود كله ، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين) [1] .

إن الإيمان بالله سبحانه يجمع النفس من فرقة ، ويلملم القلب من شتات ، وكفى بها راحة لا يشعر بها ولا يدرك قيمتها إلا المسلم الذى أسلم وجهه لله سبحانه ،فأدرك بذلك غايته وفقه سر وجوده.

4 – **الانتصار على النفس** :

وحين يكون البديل الحضارى ربانى الوجهة كذلك ،فإن من أعظم ثماره أنه يطلق النفس الإنسانية من قيودها ، ويحررها من كل أغلال الهوى وشهوات النفس ؛ ذلك لأن البديل الربانى يربى الإنسان على أبعاد أخرى ، ويعده إعداداً خاصًا ، بحيث يصبح إيمانه ويقينه هما الضابطان لتصرفاته ، والرقيبان على كل عمل يصدر منه ، ومن هنا قد تعرض للإنسان الربانى شهوة حرام فى غياب الرقيب من البشر ، ولكنه بموجب الإيمان المستقر فى أعماق نفسه والمكنون وراء ضلوعه ، يترك ذلك حياء من الله سبحانه ، وقد يتاح له كذلك المال الحرام بكل وسائله دون رقيب – كذلك – من البشر ، ولكنه بدافع من الإيمان المكين فى أعماق نفسه يتركه حياء من ربه وخوفًا لمقامه ، وقد .. وقد .. مواقف كثيرة ،ومواطن متعددة تثبت فيها ربانية الوجهة أنها عاصم من كل إثم ، وأمان من كل انحراف ، يرقى بالإنسان ويسمو إلى مقامات عليا ، ومنازل سامية ،مع الاحتفاظ بإنسانيته الكريمة ، وبشريته النظيفة ، على أنه يجب أن ننبه إلى أن الإنسان حين يرتقى هذا المرتقى العالى ، فليس معنى ذلك أنه أصبح ملكًا لا يخطئ ؛ لأن هذا لا يتفق لبشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق – ماعدا الأنبياء – إنما المقصود أنه لا يستقر على خطأ ، ولا يدوم على خطيئة ، فإذا ألمَّ بشئ من ذلك انتفض كعصفور بلَّله القَطْرُ ، وذكر ربه فتحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة ورقها ، يقول الله سبحانه:

---

(1) الإيمان والحياة ،صـ118،د./ يوسف القرضاوى ،مصدر سابق

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1].

فليس عجبا إذن (**أن يتورط الإنسان فى معصية الله وتغلبه شهوته وهواه ،فقديماً عصى آدم أبو البشرية ربه ،وغَّره الشيطان حتى ارتكب مانهاه الله عنه من الأكل من الشجرة ، ولكنه كأسرع ما يكون تاب وأناب وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار**)[2]

وهذا هو مفرق الطريق بين إنسان ربانى الوجهة وإنسان لا وجهة له .

هذه هى الثمرات التى يحصلها الإنسان فى ظل البديل الربانى وهى –كما هو واضح – ثمار لا يستهان بها ؛ لأن تحصيلها يجمع على الإنسان شمله ،ويجعل همه واحداً ، ومن ثم تستقر نفسه من قلق ، ويطمئن قلبه من حيرة ، فيعيش فى سلام مع نفسه ، وسلام مع أسرته، وسلام مع مجتمعه ،ثم السلام الأكبر مع الإنسانية من حوله.

(1) الأعراف : 201 .

(2) الخصائص العامة للإسلام ،صـ19 ،د./ يوسف القرضاوى ،مصدر سابق .

الخصيصة الثالثة ديل إنسانى النزعة

وإذا كنا نؤكد على ضرورة أن يكون البديل الحضاري ربانيًا في مصدره من جهة، وربانيًا في وجهته من جهة أخرى ، فلا بد أن نؤكد على نفس المستوى على ضرورة أن يكون كذلك إنسانيًا في نزعته، ومعنى ذلك أن يكون للإنسان فيه مكان واضح، ومكانة بارزة، في أهدافه وغاياته، باعتبار أن الإنسان هو محور هذا الوجود، وواسطة عقده، فهو المخلوق المكرم، والمكلف والمستخلف في الأرض للعبادة والعمارة على السواء، ومن ثم فإن البديل الحضاري، لابد أن يكون خطابًا للإنسان، موجهًا إلى الإنسان، مراعيًا في الإنسان مركزه في الوجود ومكانته في الخليقة، وكل بديل ليس على هذا المستوى في الخطاب،فإنه سيضر بالإنسان، ويضر بوجوده، ويجعل حياته على الأرض عبثًا بلا حكمة، وتعبًا بلا راحة، وفوضى لا تحكمها غاية، ولا يضبطها هدف.

حضارة الغرب ؛ونظرإلى الإنسان:

إن نظرة الحضارة الغربية للإنسان لا تصلح أن تكون نموذجًا يحتذى أو يقاس عليه؛ ذلك لأنها تتميز بقصور شديد في رؤيتها للإنسان، وفي نظرتها للوجود ومركز الإنسان فيه، ولعل أبرز مظاهر القصور في تلك الرؤية يتمثل في عدد من النقاط يمكن تلخيصها في الآتي:

1 -**إهمال الروح:**

إن الإنسان -كما هو معلوم- مزدوج الطبيعة ثنائي التركيب والتكوين،فهو مادة وروح، مادة من طين الأرض، وروح علوية من الله سبحانه،هكذا خلقه ربه وفطره بارؤه،وهكذا يجب أن ينظر إليه،لكن الحضارة الغربية في عورهاتركز على جانب واحد في الإنسان هو الجانب المادي فقط، ولم تخترق حجاب المادة الكثيف لتنفذ إلى الروح الشفاف، وهذا هو داؤها الأكبر وعلتها القاتلة، ومن هنا فإن البديل المطلوب ينبغي أن يقدم للجسد غذاؤه في ذات الوقت الذي لا يهمل غذاء الروح المتمثل في وحي السماء.

2 -**إغفال المصير:**

وتلك علة-من كثير- تصيب النظرة الغربية للإنسان في مقتل،فهي تهتم بالإنسان في إطار هذه الحياة فقط؛ لأنها لا تدرك-أو لا تؤمن-أن وراء هذه الحياة حياة أخرى هي أسمى وأعلى، وأشرق وأكرم، ومن هذا المنطلق كثيرًا ما تنتهي نظرة الإنسان الغربي للحياة على أنها سخافة لا معنى لها ولا هدف من ورائها، فالإنسان يعيش دون إرادته، ويموت حتف أنفه، فتطوى صفحته، وتنتهي حياته، ولهذا كان لا بد في البديل المطلوب أن يؤمن للإنسان نظرة أخرى، تجلى له حقيقة الوجود، والحكمة من ورائه، والمصير الذي ينتهي إليه، فيعيد للحياة معناها،وللوجود أهميته وضرورته.

3 - **نسيان العبودية لله سبحانه :**

ومن آفات النظرة الغربية للإنسان كذلك أنها تعامله -أى الإنسان- على أنه سيد مطلق فى هذا الوجود ، ولا رقابة عليه بل هو الرقيب والحسيب ، بل إنها تضفى عليه صفات الألوهية وخصائصها ، ومن ثم تمنحه رخصة بأن يفعل ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، ولمَ لا ؟وهو فى تلك الرؤية سيد لايسأل عما يفعل ، أما البديل المطلوب فهو الذى يوفق بين مفهوم سيادة الإنسان فى الأرض ، ومفهوم عبوديته لله تعالى ، فهو الذى خلق الإنسان ، وخلقه لمهام واضحة تدور على أسس ثلاثة هى : العبادة والخلافة والعمارة .

4 - **الغرور بالعلم** [1] :

ومن آفات النظرة الغربية للإنسان -أخيراً- ذلك الغرور الذى تتسم به هذه النظرة ،حيث الإعجاز والإنجاز ،فهى الحضارة التى قهرت الطبيعة ، وحطمت الذرة ، وغزت الفضاء ، وقربت المسافات ، واختصرت الزمن ، وسهلت عيش الإنسان على الأرض بصورة كبيرة وغير مسبوقة ،هذا كله صحيح ومسلم به ، وإنكاره مكابرة لا تقوم على أساس ، ولا تقف على قدم ، ولكن هل كل ذلك وفر للإنسان السعادة التى يطلبها ؟ إن العكس هو الذى كان ، فقد الإنسان السعادة وأسبابها ، وضلت البسمة

(1) انظر : نحو فقه ميسر،صـ219 ومابعدها ،د./ يوسف القرضاوى ،ط1، سنة 1999م ، مكتبة وهبة ، بتصرف .

طريقها إلى وجهه ، وأخطأت الراحة مسارها إلى نفسه ،فهو يسعى وراء الأشياء مهرولاً ، كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، إن العلم وحده لا يحقق للإنسان أمناً ، ولا يجلب له راحة ، وإنما لا بد من بعد آخر ، ذلك هو بعد الإيمان بالله سبحانه، واليقين بالمصير المنتظر بعد هذه الحياة ، هذه هى الآفات التى أصابت النظرة الغربية للإنسان –وغيرها كثير – وهى تجعل من حضارة الغرب وبالًا على الإنسانية، ووباء خطيراً يجب أن يقاوم من خلال بديل آخر يحترم فى الإنسان أخص خصائصه .

الإنسان نظرة قرآنية :

إذا كانت تلك هى نظرة الحضارةالغربية للإنسان ، فعلى الجانب الآخر تبدو النظرة القرآنية فى أفق رفيع لا يطار لها على جناح ولا يسعى إليها على قدم ، فالإنسان هو المحور الذى يدور الكون من حوله وله خلق الله سبحانه كل شئ ، ومن أجله بعث الرسل وأنزل الكتب ، وجعله مكرمًا يستمد كرامته من إنسانيته ، والقارئ للقرآن الكريم يستطيع أن يتبين بيسر مدى اهتمامه بالإنسان بصورة يتيقن معها الجميع أنه كتاب الإنسان ،فالقرآن الكريم كله إما حديث عن الإنسان وإما خطاب إلى الإنسان وإما تصوير للكون الذى خلق من أجل الإنسان ، ويكفى أن نعرف :

(أن كلمة الإنسان تكررت فى القرآن الكريم " 63 ثلاثًا وستين مرة " فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل " بنى آدم" التى ذكرت " ست مرات " وكلمة الناس التى تكررت "240 مائتين وأربعين مرة" فى مكىَّ القرآن ومدنِّيه ، ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول مانزل من آيان القرآن الكريم خمس آيات من سورة " العلق " ذكرت كلمة الإنسان فى اثنتين منها ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان) [1].

هذا هو الأفق العالى ، وتلك هى النظرة التى يجب أن يتسم بها البديل المطلوب ؛ ليحقق للإنسان عيشاً كريماً، وحياة آمنة ، ويجلب له الأمن الذى يطلبه ، والسلام الذى يرجوه ويتمناه .

(1) الخصائص العامة للإسلام .صـ66 ، د./ يوسف القرضاوى ، مصدر سابق .

الخصيصة الرابعة بديل شامل المنهج

هذه هى الخصيصة الرابعة من جملة الخصائص التى يجب أن تتوافر فى البديل الحضارى ، وهى أن يكون شاملاً ، وهذا يعنى شمول المنهج الذى يقدمه للناس متجاوزاً بذلك حدود الزمان والمكان والإنسان ، ويحتم تلك الخصيصة ويؤكد ضرورتها ذلك الالتقاء والتواصل الذى يتمتع به العالم اليوم ؛ إذ فى ظل العولمة أصبح العالم قرية صغيرة ، يقف من يقطن شمالها على مايحدث فى جنوبها فى نفس التوقيت دون أن يندَّ عنه شئ ، وأصبح حتمياً عند صياغة بديل جديد ، أن يراعى تلك التغيرات التى طرأت على خارطة العالم حتى يكون الخطاب عالمياً شاملاً، وأمر كهذا يخرج عن نطاق قدرة البشر ، نظراً لاختلاف الثقافات ، وتباين الحضارات ، وتنوع الأجناس ، وانقسام الأعراق ،، واختلاف الألسنة ، وتضارب الأهواء ، وتعارض المصالح ،وهو مايجعل من الصعب – بل من المستحيل – على بشر أو مجموعات من البشر أن تضع البديل الشامل الذى يخاطب الزمن كله والإنسان كله والأرض كلها .

بديل كل زمان :

فلا بد فى البديل المطروح أن يكون خطاباً لكل الأزمان والأجيال ، فلا يخاطب زمنًا بعينه ولا جيلاً محدداً ، يبقى ببقائهما، فإذا ما ذهبا ذهب الخطاب على أثرهما ، فلم يبق منه شئ إلا الذكرى – إن وجد أحداً يذكره – إن الخطاب الخاص أصبح غير ملائم لطبيعة العصر الذى نعيش ، ومن ثم لا يوجد بديل يتميز بهذا العمق الزمنى سوى الإسلام ، فهو الرسالة التى امتدت طولاً حتى شملت آبادة الزمن ، فإذا كتابه آخر الكتب ، ورسوله خاتم الأنبياء ، ورسالته هى آخر كلمات السماء إلى أهل الأرض ، فهو بكل هذا رسالة الماضى ورسالة الحاضر ورسالة المستقبل .

بديل للعالم كله :

ومما يشترط فى البديل الحضارى كذلك أن لا يكون محدوداً بمكان ولا خاصاً بأمة ولا بشعب ولا بطبقة ، بل يخاطب كل الأمم وكل الشعوب وكل الطبقات ، وأن يكون رسالة عامة (**وليست رسالة لشعب خاص يزعم أنه وحده شعب الله المختار ، وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له ، وليست رسالة لأقليم معين يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ، وتجبى إليه ثمراتها وأرزاقها ، وليست لطبقة معينة ، مهمتها أن تسخر كل الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها أو السير فى ركابها وسواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم من الضعفاء ، من السادة أم من العبيد ، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك ،إنها رسالتهم جميعاً**) [1].

هكذا يجب أن يكون البديل المطروح ، وهو مالا يتوافر اليوم إلا فى الإسلام ، الذى جاء يؤكد من أول يوم أنه رسالة للجميع ، وصدق الله تعالى القائل : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [2] .

بديل للإنسان كله :

ولابد فى البديل المطروح كذلك أن يخاطب فى الإنسان عقله وروحه وجسده، فلا يبغى جانب من هذه الجوانب على الآخر ؛ لأن البغى هنا يشطر الإنسان شطرين ويقسمه نصفين ، وهو ما يتنافى مع فطرة الإنسان وطبيعته ، فالإنسان عقل وروح وجسد ، ولكل واحد من هذه الجوانب أشواق وآمال ، ورؤى وتطلعات ، فلا بد أن ينال كل منها ما يطلب ، وأن يحصل على مايريد ، حتى لا يكلّ ولا ينقطع ، فتتحول معه حياة الإنسان إلى جحيم .

وهناك بُعد آخر من أبعاد الشمول لابد أن يراعى فى البديل المطلوب ، وهو أن يلاحظ الإنسان فى جميع مراحل حياته ، جنيناً ورضيعاً، صبياًوشاباً ، كهلاً وشيخاً ، وكذلك بعد موته ، وهذا كله لا يتوافر اليوم إلا فى الإسلام بشموله الرائع وروعته

---

(1) المصدر نفسه ،صـ 107 .

(2) الأعراف : 158 .

الشاملة التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله :﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [1] .

بديل شامل :

إن النظرة الواقعية تؤكد أن الإسلام وحده هو البديل المطلوب ؛ لأنه فى حقيقته رسالة الزمن كله ورسالة العالم كله ، ورسالة الإنسان كله ، وفى مختلف مراحل حياته ، فهو نظام **(يتناول مظاهر الحياةجميعاً، فهو دولة ووطن ، أو حكومة وأمة ،وهو خلق وقوة ،أورحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون ،أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ،أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة ،كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء)** [2] ، وبهذا الشمول العجيب يقدم الإسلام نفسه كبديل للفوضى القائمة حيث يشتمل على :

1- أحكام تتعلق بالعقيدة :

والعقيدة فى الإسلام بيان واضح ، وتفصيل لكل القضايا الكبرى والكلية التى يحتاج الإنسان لمعرفتها حتى تستقيم حياته على الأرض ، حيث تجيب له عن هذه الأسئلة الخالدة خلود البشرية ذاتها وخلود الإنسان نفسه :

من أين جاء ؟

ولماذا ؟

وإلى أين المصير ؟

ثم هى كذلك بيان مفصل لحقائق الإيمان ؛ كالإيمان بالله تعالى والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وهذه الحقائق لا غنى للإنسان عن معرفتها من مصدر صحيح ، وعلى حقيقتها دون تزييف أو تحريف .

2- أحكام تتعلق بالعبادة :

والعبادة فى الإسلام تتسم بالشمول ، حيث تستوعب كيان الإنسان كله ؛إذ إنها لا تتم عن طريق اللسان فقط ، أو البدن فقط ، أو القلب فقط ،أو الفعل فقط ،وإنما

---

(1) النحل : 89 .

(2) مجموعة الرسائل ،صـ390،حسن البنا ،ط9 ، دار الدعوة.

تستوعب كل ذلك فى شمول عجيب وتناسق تام ، وتكامل لا يوجد إلا فى الإسلام ؛ إذ فيه ما يعرف بفقه العبادات، وهو الذى يفصل هذا الجانب العبادى بدءاً من الطهارة، ومروراً بالصلاة والزكاة والصيام والحج والنذور والأيمان والذبائح، إلى غير ذلك مما يدخل فى دائرةالعبادات فى الإسلام .

3- **أحكام تتعلق بالأخلاق :**

وتتميز الأخلاق فى الإسلام كذلك بشمولها ، فهى لم تدع جانبًا من جوانب الإنسان إلا أحاطت به ؛ جسمياً وروحياً،و دينياً ودنيوياً، عقلياً وعاطفياً ، فردياً وجماعياً ، ومن ثم ترسم للإنسان السلوك الأمثل في التعامل والحركة،في كل تلك المجالات بدءاً من علاقة الإنسان بنفسه،باعتباره مخلوقًا مركبًا من جسد وروح، ومروراً بعلاقاته بغيره، كالزوج والأبوين والأقارب والأرحام ،إلي غير ذلك من الجهات التي يتحتم علي الفرد أن يتعامل معها.

4- **أحكام أخري:**

ولا يتوقف شمول الإسلام عند هذا الحد، بل توجد به أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم ، وهو ما يعرف بقانون الأحوال الشخصية، وأحكام تتعلق بمعاملات الأفراد مع بعضهم كالبيع والإجارة والرهن وغير ذلك مما يعرف بالقانون المدني ،وأحكام تتعلق بالقضاء والدعوي وأصول الحكم والشهادة وغيرها مما يعرف بقانون المرافعات، وأحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلي إقليم الدولة الإسلامية وهو ما يعرف بالقانون الدولي الخاص، وأحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة المسلمة مع الدول الأخري في السلم والحرب،وهو ما يعرف بالقانون الدولي العام [1] ، وهكذا في شمول لا نظير له.

كل هذا وغيره يؤكد الحقيقة التي تطرح نفسها،وهي أن الإسلام بهذا الشمول يفرض نفسه بقوة علي خارطة العالم كبديل لهذه الفوضي التي تجزئ الإنسان أجزاء ، وتقطعه أشلاء،ومن ثم تشقيه شقاء ما بعده شقاء.

---

(1) انظر :أصول الدعوة،ص53 ،د/ عبد الكريم زيدان،مصدر سابق،بتصرف.

الخصيصة الخامسة بديل يتسم بالتكامل

إن البديل المطروح كي يريح الإنسان من شقائه وتوزعه وتشتته ، لا بد أن يكون متكاملاً،وبتعبير آخر ،لابد أن يكون متناسقًا، وأعني بالتناسق(**أن تعمل أجزاء الكل بانتظام وتعاون في خدمة هدف مشترك بحيث لا تري بينها إلا الوحدة والانسجام، كما أنها تتنا سق أيضًا مع ما يجاورها أو يتصل بها من أشياء**) [1] ،هذا هو التكامل أو التناسق المطلوب في البديل الحضاري،وهو لازم من أجل راحة الإنسان واستقراره ، وعدم وقوعه فريسة للحيرة والتخبط والتضارب والتناقض.

ظاهرة كونية:

هذا التكامل أ و التناسق في البديل الحضاري،هو سمة الكون من حولنا ،وهو ظاهرة واضحة للعيان في كل ما خلق الله عزوجل ، ففي الكون الذي نعيش فيه يبدو هذا التكامل في أكمل هيئة وأبهي صورة،وبشكل يأخذ بالأبصار ويذهب بالألباب ، ففي (**الكون نجد ظاهرة التناسق بادية لكل متأمل،في الآفاق وفي الأنفس ،في السماوات وفي الأرض ،في خلق الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فالكواكب والأفلاك –رغم ضخامتها الهائلة- تسير في مداراتها،وتتحرك حول محاورها منذ ملايين السنين-كما يقول الفلكيون- ولكنها لا تتصادم يومًا بعضها ببعض،بل يعمل كل منها في خطه المرسوم،دون أدني خلل أو اضطراب أو تعارض مع أجزاء الكون الأخري**) [2] وهذا المعني يتكرر كثيراً في القرآن الكريم،وفي لوحات معبرة تخلب الألباب من روعة تكاملها،وتذهب بالأبصار من دقة تناسقها،وذلك مثل قوله تعالي: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ

(1) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية،ص138،د/ يوسف القرضاوي،ط1،سنة1991م، مكتبة وهبة.
(2) المصدر نفسه.

﴿ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [1] وتعليقًا علي هذه اللوحة وأمثالها في القرآن الكريم يقول الأستاذ سيد قطب **(ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه،والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة ، فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليونًا من الأميال، والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال،وهذه المسافات علي بعدها،ليست شيئًا يذكر حين تقاس إلي بُعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخري إلينا..وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب،ووضع تصميم الكون علي هذا النحو،ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع- حتي يأتي الأجل المعلوم-فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر ،والليل لا يسبق النهار ولا يزحمه في طريقه؛ لأن الدورة التي تجئ بالليل والنهار لا تختل أبدًا ،فلا يسبق أحدهما الآخر ويزحمه في الجريان)** [2] ،بهذا التناسق العجيب يعمل الكون من حولنا، ومن ثم تسير حياة الإنسان بتؤدة ة وانتظام، وهذا التكامل لا بد أن يتوافر كذلك في البديل الحضاري،حتى تنسجم الحياة- وإلا فان الصدام والشقاق والاختلاف عندها سوف تجني على الإنسان،أو أن كل ذلك سيكون الحصاد المر الذي يجنيه الإنسان.

بين الكون والمنهج:

وإذا كان الكون الذي نعيش فيه متناسقًا يكمل بعضه بعضًا بهذا الشكل الذي يفيض روعة وإعجازًا، فإن المنهج الذي يحكم وينظم حياة البشرية فيه لا بد أن يكون على نفس المستوى من التكامل والتناسق مع الكون كذلك؛ لأن الفطرة الإنسانية في أصلها متناسقة متناغمة مع ناموس الكون،فحين يبتعد الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس الذي يحكم الكون يقع الصدام لا محالة بينه وبين الكون من جهة ، وبينه وبين فطرته التي يحملها في أعماقه من جهة أخرى،وهذا الصدام يربك الإنسان أو يجلب له

(1) يس:37-40.

(2) في ظلال القرآن،ج5،ص2969،سيد قطب، مصدر سابق.

الشقاء، ويجرُّ عليه القلق والحيرة، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يكون البديل الحضاري سوى الإسلام؛ لأنه المنهج الوحيد الذي يوائم بين فطرة الكون وفطرة الإنسان في تناسق وتكامل عجيبين (**والتناسق بين منهج حياة الإنسان، ومنهج حياة الكون هو وحده الذي يكفل للإنسان التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلًا من التصادم معها، وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق، ولا يؤدي وظيفة الخلافة في الأرض كما أرادها الله سبحانه له، وحين يتناسق مع نواميس الكون ويتوافق، يملك معرفة أسرارها وتسخيرها والانتفاع بها في حياته، لا ليحترق بنار الكون ولكن ليطبخ ويستدفئ ويستضئ**)[1].

إن المنهج الذي يحكم حياة الإنسان لابد إذن أن يكون متناسقًا مع نظام الكون، وهذا لا يتحقق إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون الخالق للكون هو الذي وضع منهج الحياة بالنسبة للإنسان الذي يحيا في هذا الكون، وهذا لا يتحقق إلا في الإسلام، فهو المنهج الوحيد اليوم-بكونه الذي يتصف بذلك،أي بكونه منزلًا من عند خالق الكون، وهو ما يحقق الانسجام التام والتناسق الكامل مع الكون وفطرته التي فطره الله عليها.

عجز الخلق وقدرة الخالق:

لاشك أن مثل هذا التكامل فى الفكرة وفى الحركة وفى التوجه لا يمكن أن يتحقق من خلال مصدر أرضى أو بشرى ؛ ذلك لأن الإنسان بعقله القاصر ، وعلمه المحدودورؤيته الضيقة يعجز عن وضع نظام يتميز بهذا التناسق ،وذلك الشمول، ومن ثم فإن الخالق وحده هو (**القادر على إعطاء كل شئ فى الوجود – مادياً ومعنوياً – حقه بحساب وميزان ، فهو الذى خلق كل شئ فقدره تقديراً، وأحاط بكل شئ خبراً، وأحصى كل شئ عدداً ، ووسع كل شئ رحمة وعلمًا ، ولا عجب أن يكون هذا التوازن الدقيق فى خلق الله وفى أمر الله جميعاً ، فهو صاحب الخلق والأمر ، فظاهرة التوازن تبدو فيما أمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق أى : فى نظام الإسلام ومنجهه للحياة كما تبدو كذلك فى الكون الذى أبدعته يد الله فأتقنت كل شئ**)[2] .

---

(1) هذا الدين،ص26،سيد قطب ، مصدر سابق.

(2) الخصائص العامة للإسلام ،صـ127،د./ يوسف القرضاوى ، مصدر سابق .

إن التكامل بين الكون والمنهج والتناسق بين جزيئات المنهج كذلك أمر لا يدركه البشر، ومن ثَمَّ يكون كل منهج بشرى يوضع للإنسان محكوماً عليه بالفشل؛ لأنه متأثر بالجهل ومخلوط بالهوى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (1)

فالإنسان إذن لا يمكن أن يشرع لنفسه – فضلاً عن غيره – لأنه أقل إدراكاً، وأضيق علماً من ذلك، ومن ثم يجب أن يرد الأمر برمته إلى خالقه؛ لأنه هو الذى خلق، وهو يعلم من خلق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (2).

(1) المؤمنون: 71.

(2) الملك: 17.

الخصيصة السادسة بديل يتصف باليسر

بهذه الخصيصة المهمة نختم خصائص البديل الحضارى المطلوب ، وهى خصيصة اليسر ، التى يقوم عليه ، والتيسير الذى يدعو له، فلا بد للمنهج الذى يتقدم بديلاًعن الفوضى القائمة ، أن يكون ميسراً فلا يفوق قدرات البشر ، ولا إمكانات البشر من ناحية ، كما يسهل على الإنسان التزامه جزئياً وكلياً من ناحية أخرى ، وبتعبير أخر، لا بد أن يكون بديلاً مُيَسراً فى نفس الوقت ،إذ بالأولى يسهل حمله واستيعابه، وبالثانية يسهل تنزيله على حياة الناس ، وهذا المعنى لم يعد موجوداً اليوم فى مختلف المناهج المطروحة سواء أكانت إلهية أو وضعية، فبقايا الوحى الموجود بين أيدى الناس بعضها يحملِّ النفس الإنسانية مالا تطيق ، والبعض الآخر يصعب فى الواقع تطبيقه وتحقيقه، وفى نظريات البشر وأوضاعهم يوجد مايستعصى حتى على الفهم والإدراك ، فضلا عن التحقيق والتطبيق ، وكل ذلك لا يصلح أن يكون بديلاً لوضع قائم هو خليط من الوحى الذى أصابه التحريف ووضعيات البشر التى تتسم بالنقص والقصور والهوى .

مناهج تصادم الفطرة :

إن نظرة عجلى على بعض المناهج المطروحة ، التى تصوغ حياة الناس وتنظم أوضاعهم توضح بجلاء أن بعضها يبالغ فى المثالية حتى يجل عن التطبيق ، وبعضها يغرق فى الواقعية حتى النخاع ، فيضطر بذلك لإهمال جوانب مهمة فى النفس الإنسانية ، وكلا النوعين من المناهج روثته – أثبتت البشرية من خلال تطبيقات سابقة أثبت بعد التجربة فشلها فى التعامل مع الإنسان باعتباره مزدوج الطبيعة ثنائى التركيب ، وإهمال جانب من تكوين الإنسان أمر مرفوض فى الواقع ؛لأنه يسبب للإنسان الحرج والعنت والمشقة ، وهذا ضوء على بعض الممارسات الخاطئة من خلال حقائق تاريخية :

عجائب الرهبنة :

إن نظام الرهبنة الذى ابتدعته طوائف من الناس فى القديم، جاء إلى الدنيا بممارسات تفوق التصور والوصف ، ممارسات تصطدم بفطرة الإنسان ، وتصادم

نوازعه ، بل تسحق آماله وأشواقه سحقاً، ومن ثَـمَّ لم يقـو عليـه مـدعوه ومبتـدعوه ، وسرعان مافقد بريقه ولمعانه ، وصار سبة فى جبين أصـحابه ، وهـذه صـورة مـصغرة لبعض ممارسات الرهبان فى القرون الوسطى ، يرسمها لنا الشيخ أبو الحـسن النـدوى رحمة الله فيقول :(**إن الراهب مكاريوس نام ستة أشـهر فى مـستنقع ليقـرص جـسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائمًا نحوقنطار مـن حديـد ،وكـان صـاحبه الراهـب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح، وقـد عبـد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة ، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة ،فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا ، وإنما يسترون بشعرهم الطويل، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثـرهم يـسكنون مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهـم في النجاسـات والـدنس، يقـول الراهـب أتهيـنس:إن الراهب أنتوني لم يقترف إثم غسل الرجل طول عمره...**) [1] .

وأنا هنا مضطر لقطع هذه الـصورة رفقًـا بقـارئ هـذه الكلـمات حتـى لا يـصاب بالغثيان من هذه النظم أو الممارسات التي أساءت إلى الإنسان والإنسانية وهي تحسب أنها تحسن صنعًا،ولكن التساؤل المنطقي هنا : هـل هـذا نظـام يوافـق فطـرة الإنـسان ويمكن أن يتحمله؟ بالطبع ستكون الإجابـة بـالنفي ولـيس مـرة واحـدة بـل مـرات عديدة؛لأن مثل هذه النظم تسير في اتجاه معـاكس تمامًـا للفطـرة البـشرية التـي تأخـذ مسارها بوضوح في اتجاه محدد، ويحقق لهاخالقها، وهو الاتجاه الوحيـد الـذي يناسـبها ويحقق له أمنهاوسلامتها.

الطرف المقابل:

حاول الرهبان إذن أن يبالغوا في المثالية-بزعمهم- فتعبوا وأتعبوا، وضلو وأضلوا، وفي المقابل ،أو على الطرف ا لآخر بالغ أنـاس في الواقعيـة فظلمـوا أنفـسهم وظلمـوا

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،ص107، مصدر سابق.

معهم بني جنسهم ؛لأنهم كذلك انحرفوا عن فطرة النفس، وفطرة الكون، فكان الخروج الفج على فطرة الأشياء وطبيعة الأشياء،يقول الأستاذ محمد قطب:(**والواقعية تتنكب الأحلام عمدًا،وتجنح إلى الواقع الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، ويمارسه الناس وهم واقعون تحت ضغط الضرورة، لامنفلتين منها ولا مترفعين عليها،واقع المادة وواقع الحيوان،إن هذا الواقع الصغير الذي رسمت حدوده الداروينية القديمة لينتهي بالناس عند المطالب القريبة التي تحتمها الضرورة، ولا يرتفع عن ذلك ولا يحلم بما هو أجمل أو أكمل أو أفضل، ومن ثم يظل مستواه يهبط،ويظل محيطه يضيق في النهاية إلى جعل الإنسان آلة حيوانية يتصرف كما تتصرف الآلة، وينطلق كما ينطلق الحيوان؛لأنه يعيش بجناح واحد،جناح الواقع**)[1] وهذا الإيغال في الواقعية-لاشك- سبب للإنسان العنت، وجلب له المشقة؛لأن فيه بعدًا آخر،هو بعد المثال والخيال الذي لايعيش بدونه، ومن ثم لابد من بديل يجمع بين الواقع والمثال؛ليسهل تطبيقه في حياة الناس.

بديل سهل التطبيق:

إن على المنهج المطلوب-إذن- أن يراعي قدرات الناس، ويوافق إمكاناتهم ولن يكون كذلك إلا إذا توافق مع فطرتهم،مراعيًا أشواقها ومتطلباتها، ومراعيًا كذلك ما يزكيها وما يدسيها، وما يرفعها وما يهبط بها، وهذا كله لا يتوافر إلا في الإسلام؛لأنه في تعامله مع فطرة الناس(**يسير هينًا لينًا، يوجهها من هنا، ويذودها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها ولا يجهدها كذلك،إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية البعيدة المدى، الأكيدة التحقيق، والذي لا يتم في الجولة الأولى يتم في الجولة الثانية، ولذي لا يتم في الجولة الثانية يتم في الجولة الثالثة..أو العاشرة...أو المائة..أو الألف، كل ما هو مطلوب،هو بذل الجهد والمضي في الطريق، وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في أعماق التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك كذلك،ينبت هذا المنهج في النفس، والحياة، ويمتد في بطئ وفي ثقة وطمأنينة،ثم يكون ما يريد الله أن يكون**) [2] .

---

(1) منهج التربية الإسلامية،ج1،ص148،ط11،سنة1988م،دار الشروق.

(2) هذا الدين،ص37،سيد قطب،مصدر سابق.

بهذا الهدوء والانسياب، وهذه الثقة واليقين،يتحقق هذا المنهج في النفس، ويستقر في أنحاء المجتمع،يساعده على هذا أنه يتوافق مع الفطرة، ومن ثَمَّ فهو سهل التطبيق سهل التنفيذ.

تيسير يرفع الحرج:

لا بد في البديل إذن أن يراعي فطرة البشر ويلائم طبيعتهم، ويحفظ ضروراتهم، ويحمي أشواقهم، ولن يحقق البديل ذلك إلا إذا كان يتسم باليسر، الأمر الذي لا يتحقق اليوم إلا في منهج الإسلام، حيث يسرى التيسير في أعماقه، كما تسرى العصارة في أغصان الشجرة الحية،الأمر الذي قرره القرآن الكريم وكرره كذلك في مواطن عديدة ومناسبات متنوعة، ومن هنا نلاحظ أن القرآن الكريم نفسه ميسر الذكر ، والعقيدة ميسرة الفهم ، والشريعة ميسرة التنفيذ والتطبيق وليس فيها تشريع واحد يفوق طاقة الناس ، ويتجاوز قدراتهم ، والقواعد القرآنية فى هذا الباب واضحة مثل قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [1] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [2]

.وبعد آيات الصيام يطالع الإنسان قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [3] ويطالع بعد آية الطهارة

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [4] . وبعد آيات النكاح : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [5] . وفى آية القصاص : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [6] .

---

(1) البقرة : 286 .
(2) الطلاق : 7 .
(3) البقرة : 185 .
(4) المائدة :6
(5) النساء :28 .
(6) البقرة :178 .

وحسبنا بعد كل ذلك قول أمنا عائشة رضي الله عنها تصف النبى ﷺ :(**ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه**) [1] . ويعلق الدكتور محمد عمارة على هذا الحديث بقوله :(**فهذا الإثم الذى كان الرسول ﷺ أبعد الناس عنه هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين ؛ لأنه الظلم والباطل والتطرف ، والمنحاز بعيداً عن العدل والحق واليسر والاعتدال**) [2] . بهذه الروح: روح الاعتدال والتيسير يمكن للبديل أن يتعامل مع واقع الناس دون أن يشق عليهم ، أو أن يجلب لهم حرجاً ، وهو مالم يعد الناس يطيقونه – خاصة فى زماننا – وهم أحوج ما يكونون إلى التيسير فى كل حين ، وفى هذا الحين على وجه الخصوص .

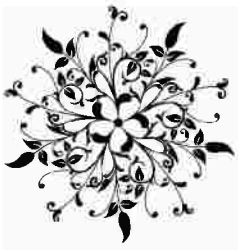

(1) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ،ك/ المناقب ،باب / صفة النبى ق ج6،ص654، عن السيدة عائشة ك ، فتح البارى المكتبة السلفية ، دار الريان للتراث .

(2) معالم المنهج الإسلامى ،ص18، ط3 ، سنة 1998م ،دار الرشاد .

خاتمة

هذه بعض الخصائص التى يجب أن يتصف بها البديل الحضارى المطروح أو المطلوب ، إذ يجب أن يكون – كما ذكرنا – ربانيًا فى مصدره، وربانيًا فى وجهته ، وإنسانيًا فى نزعته، وشاملاً فى منهجه ، ومتكاملاً فى ذاته متناسقاً مع الكون ومع الفطرة ، وأخيراً لا بد أن يكون ميسراً فى تطبيقه ، ميسراً فى توجيهاته وأحكامه ، وقد تبين من خلال استعراض تلك الخصائص أنها مجتمعه – ومنفردة كذلك- لا تتوافر كاملة الصورة ،ولا تتحقق مكتملة الرؤية إلا فى الإسلام ، ومن ثَمَّ كان الإسلام – والإسلام وحده – هو البديل المطلوب ؛ لأنه أولاً هو الذى يتمتع بهذه الخصائص ، ولأنه ثانياً هو الذى يستطيع أن يعيد بناء الإنسان وتكوين الأسرة وإرشاد المجتمع وقيادة سفينة البشرية الحائرة فوق أمواج القلق والاضطراب،نحو شاطئ الأمن ومرافئ الأمان والسلامة ، وهذا ماسوف تبرزه الصفحات المقبلة تحت عنوان : **الإسلام كبديل** .